

تفسير البحر المحيط

@ 57 @ فَضَّلَهُ إِنْ نَّهْ كَانَ بِرَكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي
الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَيْهِ فَلَمْ يَنُجِّكُمُ إِلَّا الْيَدْرُ
أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ . .

لما ذكر تعالى وصف المشركين في اعتقادهم آلهتهم وأنها تضر وتنفع ، وأتبع ذلك بقصة
إبليس مع آدم ، وتمكينه من وسوسة ذريته وستويله ذكر ما يدل من أفعاله على وحدانيته ،
وأنه هو النافع الضار المتصرف في خلقه بما يشاء ، فذكر إحسانه إليهم بحراً وبراً ،
وأنه تعالى متمكن بقدرته مما يريده . وإزجاء الفلك سوقها من مكان إلى مكان بالريح
اللينة والمجاديف ، وذلك من رحمته بعباده وابتغاء الفضل طلب التجارة أو الحج فيه أو
الغزو . والضر في البحر الخوف من الغرق باضطرابه وعصف الريح ، ومعنى { ضَلَّ } { ذهب عن
أوهامكم من تدعونه إلهاً فيشفع أو ينفع ، أو { ضَلَّ } { من تعبدونه إلا الله وحده
فتفردونه إذ ذاك بالالتجاء إليه والاعتقاد أنه لا يكشف الضر إلا هو ولا يرجون لكشف الضر
غيره . ثم ذكر حالهم إذ كشف عنهم من إعراضهم عنه وكفرانهم نعمة إنجائهم من الغرق ،
وجاءت صفة { كَفُورًا } دلالة على المبالغة ، ثم لم يخاطبهم بذلك بل أسند ذلك إلى
الإنسان لطفاً بهم وإحالة على الجنس إذ كل أحد لا يكاد يؤدي شكر نعم الله . .
وقال الزجاج : المراد بالإنسان الكفار ، والظاهر أن { إِلَّا إِلَيْهِ } استثناء منقطع
لأنه لم يندرج من قوله { مَن تَدْعُونَ } إذ المعنى ضلت آلهتهم أي معبوداتهم وهم لا
يعبدون الله . وقيل : هو استثناء متصل وهذا على معنى ضل من يلجؤون إليه وهم كانوا يلجؤون
في بعض أمورهم إلى معبوداتهم ، وفي هذه الحالة لا يلجؤون إلا إلى الله والهمزة في {
أَفَأَمِنْتُمْ } للإنكار . قال الزمخشري : والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتهم فأمنتهم
انتهى . وتقدم لنا الكلام معه في دعواه أن الفاء والواو في مثل هذا التركيب للعطف على
محذوف بين الهمزة وحرف العطف ، وأن مذهب الجماعة أن لا محذوف هناك ، وأن الفاء والواو
للعطف على ما قبلها وأنه اعتنى بهمزة الاستفهام لكونها لها صدر الكلام فقدمت والنية
التأخير ، وأن التقدير فأمنتهم . وقد رجع الزمخشري إلى مذهب الجماعة والخطاب للسابق
ذكرهم أي { أَفَأَمِنْتُمْ } أيها الناجون المعرضون عن صنع الله الذي نجاكم ، وانتصب {
جَانِبِ } على المفعول به بنخسف كقوله { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ }
والمعنى أن تغيره بكم فتهلكون بذلك . وقال الزمخشري : أن نقلبه وأنتم عليه . .
وقال الحوفي : { جَانِبِ الْيَدْرِ } منصوب على الظرف ، ولما كان الخسف تغييراً في

التراب قال : { جَانِبَ الدِّرِّ } و { بِكُمْ } حال أي نخسف { جَانِبَ الدِّرِّ }
مصحوباً بكم . وقيل : الباء للسبب أي بسببكم ، ويكون المعنى { جَانِبَ الدِّرِّ } الذي
أنتم فيه ، فيحصل بخسفه إهلاكهم وإلاً فلا يلزم من خسف { جَانِبَ الدِّرِّ } بسببهم إهلاكهم
.

قال قتادة : الحاصب الحجارة . وقال السدّي : رام يرميكم بحجارة من سجيل ، والمعنى
أن قدرته تعالى بالغة فإن كان نجاكم من الغرق وكفرتم نعمته فلا تأمنوا إهلاكه إياكم
وأنتم في البر ، إما بأمر يكون من تحتكم وهو تغوير الأرض بكم ، أو من فوقكم بإرسال حاصب
عليكم ، وهذه الغاية في تمكن القدرة ثم { لَا تَجِدُوا } عند حلول أحد هذين بكم من
تكلون أموركم إليه فيتوكل في صرف ذلك عنكم . و { أَمْ } في { أَمْ أَمْنتُمْ } منقطعة
تقدر بيل ، والهمزة أي بل { أَمْنتُمْ } والضمير في { فَرِيهَ } عائد على البحر ، وانتصب
تارة على الطرف أي وقتاً غير الوقت الأول ، والباء في { بِمَا كَفَرْتُمْ } سببية وما
مصدرية ، أي بسبب كفركم السابق منكم ، والوقت الأول الذي نجاكم فيه أو بسبب كفركم الذي
هو دأبكم دائماً . والضمير في { بِهِ } عائد على المصدر الدال عليه فنغرقكم ، إذ هو
أقرب مذكور وهو نتيجة الإرسال . وقيل عائد على الإرسال . وقيل : عليهما فيكون كاسم
الإشارة والمعنى بما وقع من الإرسال والإغراق . والتبعية قال ابن عباس : النصير ، وقال
الفراء : طالب الثأر . وقال أبو عبيدة : المطالب . وقال الزجاج : من يتبع بالإنكار ما
نزل بكم ، ونظيره قوله تعالى { فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا } وفي الحديث :
(إذا اتّبع أحدكم على